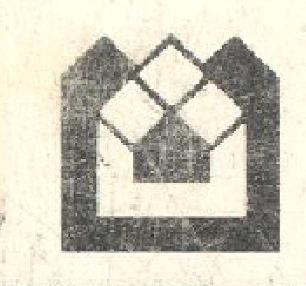


الكتـــاب الأول

سؤال فى الوقت الضائع

مدحت يوسف

قصص

المجلس الأعلى للثقافة



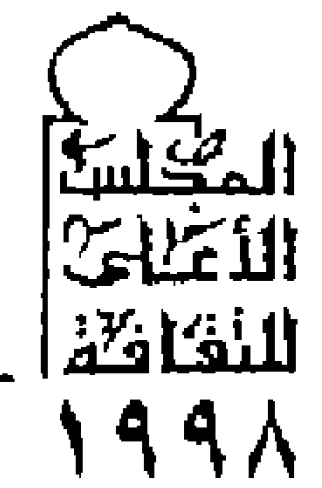
الكتاب الأول

- ٣٠ -

سؤال فى الوقت الضائع

قصص

مدحت يوسف



١٩٩٨

التصميم الأساسى للغلاف للفنان محيى الدين اللباد + أحمد اللباد

لوحة الغلاف نحت للفنان : صبحى جرجس

إهداء

إلى زوجتى

إلى ابنى مينا .

إلى ابنتى دميانه .

سؤال فى الوقت الضائع

مدحت يوسف

الساقى

فى قيظ الحر يجلس بمفارق طرق المدينة القديمة المتصحرة ، يبيع الماء المثلج لأهل مدينته بدراهم ذهبية ، يشترى أخشاباً يخزنها ببدروم منزله ، يقوم بصناعتها توابيت ، يوزعها عليهم مجاناً .

صورة

يده اليمنى تمسك بالكاميرا . قدمه تخطو فوق أرضية الكوبرى بثبات . أشياء تصورها الكاميرا فى المياه : « جركن فارغ .. قطعة خشبية .. عقب سيجارة » . يؤكد لأصدقائه قوة الكاميرا وتلوث المياه . فى طريق عودته بعد تصويره لإحدى الحفلات تنحرف السيارة لتسقط فى مياه الإبراهيمية . يقاوم الاختناق ، يكسر زجاج السيارة بقدمه . الماء يتدفق إلى فمه .. أنفه يختنق يلفظ أنفاسه . يده مازالت قابضة على الكاميرا . يجرف تيار الماء جثته أسفل الكوبرى . الكاميرا لا تسجل شيئاً ، ولا الكوبرى أيضاً .

نظـــرة

نظر إلى ابنه من أخت زوجته المتزوجه من أخيه بابتهاج بينما ينظر أخوه إلى ثمرة خطيئتـه وهى تحبـو على الأرض فى غضب . الأختـان جالستان تؤكد كل منهما للأخرى أحقيتها فى إدارة المنزل .

صورة أخرى

أنا الغير شقيق لهم ، أحببتهم وهم صخرة صماء . أصمت . أصواتهم تعلو . أصابعهم تشير إلى باتهامات لم أرتكبها . أيديهم تتلاطم فوقى ، جسدى يئن . يتوجع . أبى يرنو لى من أعلى فى صورة مكللة سواداً .

الذاكرة الخرساء

الموت يصب ذاكرته الخرساء فى نومى . جدار النسيان فى نصف المسافة بين الموت والنوم . فى النوم أثقب الجدر وأنهل من حلمتى الموت فى شبق ..

الشبع يقطر على شفتى دسماً فأصحو من نومى وقد تشققت شفتى بالعطش . ماء يروى عطشى فأعود لنومى . حتى نهار آخر أصحو فيه وأهدم الجدار .

ثقب فى جدار النسيان

ألح عليها كى تسجل له صوتها - قال : صوتك زادى فى أيامى المقفرة ، سوف أفعل ما تريد يا ابنى فأنا أعلم مقدار حبك لى .

بعد سنوات عديدة ، قرأ ابنه على غلاف شريط وجده مع الأشياء القديمة المهملة . .

« حبيبتى من تكون »

فرح به . عندما أراد سماعه ، فاجأه صوت نسائى لا يعرفه ، اعترت ملامحه الدهشة ، بينما انخرط أبوه فى بكاء مر .

صوت السكون

السائق يستمع إلى أنغام موسيقية بينما عجلات سيارته تتسابق في جنون . صوت ارتطام . تتوقف الأنغام الموسيقية . تتجه العجلات صوب السماء . الطبيب يشخص الحاله « شلل نصفى » بينما زوجته تهز ساقيها بعصبية بالغة وتعلن أسفها .

وقع أقدام

صحوت على وقع أقدام خلفى . رأيت رجلاً يحمل شابة عارية على كتفه . دون أن أدرى أغوص فى جسدها العارى ، أتبع وقع الأقدام ، تجاوزنا عدة طرقات . دلف من ذاك الباب . بفضول دخلت وراءه . رأيتها نائمة على مائدة رخامية بين عدة موائد جميعها يحمل قطعاً من اللحم البشرى .

صهيل الذاكرة

وأنا فى المقعد الأمامى بجوار سائق الميكروباص أطل وجهها باسماً كعادته . جلست بجوارى بعد أن قالت صباح الخير باقتضاب شديد ، علاقتى معها بدأت منذ ثلاث سنوات . هى لا تحب أن تخون زوجها كما أخبرتنى ، وأن ما حدث بيننا كان ضعفاً إنسانيا يجب ألا يستمر . أمام مقهى سافوى قال الراكب خلفى للسائق : أجرة اثنين ، أنا والسيدة التى فى الأمام . رددها بعده كل من فى السيارة .

جبار

« من الآكل خرج أكلا من الجافى حلاوة »*

مال الجبار فنام على ركبتيها ..

من الآكل خرج موتا من الجافى جفاوة .

أسكرتْه فما ظفرتْ بشىء !!

توسلتْ .. تدللتْ .. عرفت السر الكبير .

سمعتُ تأوهات شعره وهى تجز

أسود الغابة أحنت هاماتها . تسيدت فئرانها . فى قيوده لعب كالبهلوان ، عيناه للحجر الأصم قدمتا قربانا ، نار تأججت داخله دموع انسكبت منه . فى الحال نبت شعره .

صحا الجبار من نومه قال : (أجبنى هذه المرة فقط) . فتهاوى المعبد فى لحظة ، نحن مازلنا على ركبتيها نيام .

(*) من العهد القديم

صحبة

قدمت نفسها كتابعة له . أشار بيده فجلست أسفل قدمه . عيناها تتابع نظراته فى شغف . ينسدل شعرها الذهبى ليغطى كل ظهرها .

فى غلطة أمرها بسكب ماء حيائها أمامه ، اقتطع من جلد شفيتها ليسد ثقب حذائه . أعتصر ثدييها وشرب كى ينام نوماً هادئاً .

قص جدائل شعرها . أزال بها أترية تحفه الثمينة التى احتفظ بها آلاف الأعوام . سمح لها بمرافقته . ابتسامتها الرائعة لم تعد تظهر . شعر رأسها بدأ ينبت . لكنه لم يكن ذهبياً .

لم تنجح فى ارتداء ملابسها مرة أخرى . تنتقل معه من مكان لآخر . لا تقوى على التحدث معه أبداً .

لعبة

على قمة التل المطل على الوادى من جهة ومن الجهة الأخرى على النهر ، أوقف جنوده . كل يحفظ دوره . الجميع يخاف مصيره .

يعلمون أن من يتبقى منهم على قيد الحياة لن يتعدى أصابع اليد الواحدة . هى حفلة صاخبة يبارى فيها أحد قواده . ليس المهم من المنتصر ، يروقه فقط منظر الدماء الحقيقية وهى تنساب منحدرة إلى مياه النهر لاعنة ذلك الأمبراطور الهندى منشئها ومبتكرها . حاولت زوجته مراراً إلغاء تلك الحفلات فلم تستطع ، حتى ذلك اليوم الذى أتفق فيه الأبيض والأسود على ألا يعبث أحد بهما بعد اليوم . طعنته الطابية . ألقى به الحصان بعيداً . داسه الفيل بأقدامه الثقيلة .

دموع زوجته لم تكف لوقف السيل المنهمر . تقدموا منها ، أحنوا رؤوسهم . توجوها ملكة عليهم . أخبروها بمحبتهم الفائقة لها . وافقت على مضض . أمرت النهر بصعود التل مرة كل عام لتختفى إلى الأبد الدماء التى أدمت قلبه الطينى .

ذات

عندما دخلت قلبه أول مرة كانت صغيرة . لم يلحظها . وهى تكبر . فى البداية ألقت ببعض الوصايا القديمة عن الانتماء والأصدقاء . ثم لم تلبث أن اتجهت إلى أقاربه تقذف بهم واحداً تلو الآخر من نافذة صغيرة . أوصلتهم بوريد يحملهم مباشرة إلى أمعائه الغليظة . تكدست مجارى العاصمة بجثث لم يعرف مصدرها . ذات صباح وجد العمال جثة مشوهة اتضح بالبحث إنها لأبيه العزيز .

« قيد الحادث ضد مجهول » .

الآن تحتل ذاته معظم الغرف . مساحة صغيرة تحتلها زوجته وأطفاله . هى آخذة فى النمو . تتعلق يد الزوجة بالحديد المثبت فى جدار الشرفة تحاول أن تحمى أطفالها . الضغط يزداد . الزوجة والأطفال فى البالوعات . تخرج من داخله لتعيش معه . تكبر . تكبر . ينكمش داخل شقته . يقاوم الاختناق . لا تترك له مكاناً . يأخذ سيارته . يسير على الطريق الصحراوى . سيارة بنفس لون سيارته تسير عكس اتجاهه .

يسـيـر إلى جـانب الطريق الأيمن . أمـامـه . إلى جـانب الطريق الأيسـر ، أمامه . تقترب منه ينحـرف لكى يفلت منها . تنقلب سيارته . ينظر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . يجد ذاته داخل السـيارة الأخرى .

ذات وأخرى

عنـدما فـاجـأتنى وأنا بـين أحضـان أخرى وعدتها بألا أكررها فلمـا فـاجـأتنى ثانيـة قلت : اتركـينى .. فلن أتركـهـا . تركـتنى ، فتركتنى الأخرى . سرت إلى حيث لا أعرف . حينما عرفت ، لم أجد ذاتى ، بل وجدت أخـرى .

يقظة نوم

طرقت الباب لمدة طويلة . بعدها اضطررت لاستعمال المفتاح الخاص بى . دخلت غرفة النوم وجدتنى نائماً. ذهبت إلى المطبخ . كسرت بالسكين الثلج فسالت منه الدماء . لم أهتم . رويت عطشى . تركت بقعة الدم على أرضية المطبخ دون نظافة . ذهبت إلى غرفة أخرى فلم إشأ ايقاظى .

علاقة

فى صفحة الوفيات خبر وفاتى . السيد رئيس الجمهورية ينعى بمزيد من الآسى فقيد الشباب المرحوم .

ابتسمت فى ود ظاهر فلم أعلم أن لى كل هذا الاهتمام .

- كلم سيادة المدير العام . لأمر هام

- صباح الخير يا أفندم

- كيف تعمل لدى ولا أعرفك . أنت كفاءة نادرة . ستتولى رئاسة الفرع . يهمس فى أذنى :

- لماذا لم تخبرنى بمعرفتك بالسيد الرئيس ؟

ابتسم فى هدوء .

أكاليل الزهور تملأ المنزل .

- عندما رأيت جنازتك فى التلفزيون وسيادة الوزير يتقدم الصفوف قلبى انشرح . عقبال كمان وكمان يا ابنى .

- سأنام قليلاً لدى عمل هام .

الجريدة موضوعة باهتمام على السرير .
أقلب صفحاتها أتوقف أمام « حظك اليوم »
« مهام جليلة تنتظرك . المستقبل أمامك مشرق » .

عبــور

فى أول الأسبوع ، حين تعامد الشمسين . اقترب من البوابة الضخمة حاملاً على رأسه قفة مليئة بالكلمات المبعثرة والنظرات المتشابكة الزائغة التى تكون لوحة غير محددة المعالم .

تقدم منه حارس البوابة سأله عن اسمه فلم يرد . أزاح القفة من على رأسه . دوت صرخات . كلمات غير مفهومة . نظرات منكسرة أزاحها الحارس بقدمه خارج الباب . اقترب منه . نزع ملابسه . تفرس فيه . لم يجد له علامة مميزة . طعن قلبه بأداة حادة . نزف القلب حباً مشتعلاً . أسماكاً حية . ابتسم وسمح له بالدخول .

رؤى جسد

آوت إلى فراشها مبكراً

جاء إليها فى ملابس ناصعة البياض

اقترب منها . عانقها . أخبرته بعذريتها وعدها بالحفاظ عليها .
عندما استيقظت من نومها وجدت نفسها عارية . نافذتها مفتوحة .
بقع دماء على فراشها . جسدها مشطور إلى نصفين .

سفر

ارتدى ملابسه . وضع قدمه داخل حذائه الجديد . وضع كتبه داخل الحقيبة .

رنين جرس . تمارين الصباح . تحيا جمهورية مصر العربية . يرددها فى حماسة . يتلفت خلفه . لم تصل بعد . زاحم الجميع ليصل إلى المقعد الأول .

فى بداية العام . السبورة أمامه مباشرة . حجز لها مكاناً بجانبه

- لماذا تجلس فى المقعد الأمامى وأنت طويل القامة ؟

- أشعر بدفء الشمس بجوار النافذة .

السبورة واضحة لى .

لم تأت بعد - رنين جرس - الأقدام تنتظم مع قرع الطبول .

أبنائى الطلبة . بمزيد من الأسى أنعى لكم خبر وفاة زميلتكم نجوى.

- لماذا لا تجلس فى مقعدك الأمامى ؟

- أشعر ببرودة بجوار النافذة ، السبورة غير واضحة لى فى الأمام ، الدموع تتساقط على الأرض .

رحلة

صعد إلى الجبل . وضع تعبه الثقيل خلفه . حبيبات الزمن خرجت مع حبات عرقه ، نقشت على الصخر خريطة لحياته الماضية قال :« ليت الروح تفيض فى جنبات هذا الوادى » .

مدَّ رجليه إلى الأمام . أناخ ظهره على الرمل ، شفتاه تتمتمان : «الآن . الآن» تقطعت أحباله الهوائية واحدٌ تلو الآخر إلى أن حلق بعيداً . شاهد الأرض كنقطة سوداء باهتة المعالم .

أخذ يروى عطشه بمعرفة فائقة المعرفة . تذوق رقائق من الحب الخام طعمها كـ .....

سلام غمره من كل جانب .

- ما اسمك ؟

- حياتى بدأت الآن فهبنى اسماً جديداً .

- لك هذا من أجل من أطعمتهم من اليتامى . ياقاطع الأحجار .

صوت رددته الكواكب البعيدة ، عندما ابتسم لى الفضاء بنعومة بالغة . وأنا أحمم البحر وأخفيه داخل سترتى . لحظتها تلاعبت بالزمان . ساءلت المدى . لم أشعر بالتعب . أردت أن أستريح ، فأسندت رأسي على صدره وغفوت .

دمعة

المكان يقلقنى . غيابى الذى تعدى عدة أشهر ، لم يكن مقصوداً .

تربت على كتفى .. تقول :

أعددنا لك الحقيبة . كل ما ستحتاجه داخلها . السجائر تفتح لك أبواباً كثيرة .كتب فى شتى المجالات . الشاى والبن أكثرت منهما . عندما يحل المساء يتضخم الجدار ، يكبر . العفاريت تنتشر . توقظ من يضع جنبه لينام . يشاركها فى هذا كثير من البق ، الصراصير ، إيقاع الماء المتساقط يضيف رتابة تضيق بها الجدران . الرائحة المنبعثة تحضك على القئ .

– تجلد . هى أول تجربة لك ، ستتعود . تكيف ذاتك على تلك « التلقيحة » قد تستفيد منها .

عندما يأتى الليل . تسلق أشعة القمر . تستطيع أن تلقى نظرة على الهرم . النيل . السد العالى . صمت القلعة الظاهرى من الخارج

قـد يروقك . تعود بعدها منهكاً . تنام . لن يوقظك سوى طرقات قاسية تدعـوك للخروج . تبـتـسم لك شـمـس النهـار . تحنو عليك . تنظف لك حجرتك .

ثلاثة أيام الماء لم يدخل فمى . يريدون توقيعى على أوراق لا أعلم عنها شيئاً . أناس لم أعرفهم من قبل .

لسـانهم يحطم عظامى . ينهش لحم أبى . أمى . أقف عـارياً . ملابسى مكومة بجوار الجدار . أنظر إلى أعلى . يقول متهكماً :

- إذا استطاع أن يأتى ويخلصك فليأت . لكنه مقيد فى الحجرة المجاورة لك . العطش يحفر شقـوقاً داخل فمى ، أعلى لسانى يستـقـر . يُفتح الباب ليلاً . ماء مثلج يغمرنى . لم أتبـين ملامحه . يمضى فى صمت ، صوت المذياع يعلو :

« أعطنى حريتى . أطلـق يدى . إننى أعطيت ما استبقيت شيئاً » .

أتذكر أمى ومرضها . أخشى ألا أراها ثانية . دمعة تنحدر من عينى . تبلل الأرض الصخرية ، فتنبت لى وردة . تجفف دموعى فى رقة .. تقول :

- الورد وإن كلل خداه بالدموع . يظل ورداً .

تغيير

حملته قدماه إلى مدخل الدكان القائم تحت الأرض . نزل السلالم المؤدية إليه بتردد شديد . هو لم يألف مثل تلك الأماكن . تقدم ، نام على ظهره ، رأسه ناحية المشرق ، قدماه ناحية الغروب .

أفصح عن شكواه ، أمره بفتح فمه ، ثبت له ميزان حساس بأحباله الصوتية ، أضاف عدة طبقات من الجلد السميك فوق خديه ، أمد عنقه بعدة فقرات إضافية فاستطال ، ألغى له عمل الركبتين ، أعطاهما ميزة الصلابة ، أشبع عقله بشتى أنواع المعرفة ، ملأ تجويفه الصدرى بقلب جديد ، ألبسه خوذة على رأسه ، درع على كتفه ، سيف فى يده وأطلقه للمعركة .

النافذة

الشرفه تلقى بظلالها إلى الشارع . ينتظر عودة صديقه . من خلال النافذة المقابلة يرى والدة صديقه تغير ملابسها . تخرج من غرفة النوم . تستلقى فى مواجهة الشرفة بثوب لا يخفى شيئاً . جميلة . جذابة . ذات جسد لم يؤثر فيه موت زوجها . رأته فى الشرفة لم تحفل به . تحرك ساقيها . ضحكاتها تملأ الهواء . مطرقة ثقيلة هوت على رأسه . يده ماتت على سور الشرفة . قدماه لا تقويان على الحركة . نظر .. صديقه يقترب . صاح به متعلشماً :

النافذة تغلق بهدوء . يصعد صديقه إلى الشرفة . يرى النافذة مغلقة يقول : (منذ موت أبى لم تفتح أمي تلك النافذة) .

أنثى

بأطراف المدينة هي . يدى تمسك بالنرجيلة . رائحة العرق مختلطة بتراب الأزقة . تظهر على ملابسي . توسدنى المقعد . القهوة باردة ككل يوم . الصخب يتجول بأروقتها .

طرقعات الدومينو . الطاولة تتخذ طريقها المعتاد إلى شوارعى الفارغة . لم تطلب منى حلاقة ذقنى ، لم تأمرنى بالاستحمام . ارتادها كلما حوى جيبى بعض النقود . فيض الشبق يدفعنى إلى أزقتها . تسرّى عنى اللحظات . بعدها تتصدع أركان ذاتى المتشققة .

على نفس المقعد سبقنى « ضابط - طبيب - مدرس » من نفس الكوب الفارغ ارتووا .

رائحة العرق تملأ أروقة ذاتى . ذرات التراب عالقة بدمى .

أجمع ذراتى المتناثرة أسفل موائدها . أكتشف ضياع بعضها ملتصقاً بأحذية روادها .

أخشى العودة لمنزلى . أقبع على الرصيف المقابل فى انتظار مالا يأتى .

دهشة

أسفل الأشجار فى حديقتها الخاصة المحاطة بأسوار عالية كانت تستحم . مختبئا كان خلف الأشجار يرقبها فى صمت بينما جسده يرتعش . سيدته وهو يعلم بميعاد قدومها . ألحت الفكرة عليه أن يرى مكامن أنوثتها . يعلم جيداً أن الموت عقوبة ما يفعل . قال الطائر للشجرة الواقف عليها :

- ما سر اختبائه ؟ لماذا هو مرتبك ؟

أنى أراها كما يراها هو . لست مندهشاً مثله بل عندما اشاهدها بكامل ملابسها وزينتها أشعر بالبهجة .

أجابته : هناك مرسوم . يجب اطاعته . نحن لا نخالفه فأنا مثلا أسقط أوراقى وأتعرى . لا أخجل ولا يخجل أحد منى .

- أنا أيضا أخرج من البيضة عارياً واكتسى تدريجياً بالريش .
قطع حديثهما صوت شهقة عالية ندت عن السيدة وهى تحاول أن تستر جسدها .

عندما التف الحبل على فرع الشجرة ، فزع الطائر وحلق عاليا . ربطه جيداً ، جاء السيد فوجده معلقاً من عنقه ، لسانه يتدلى خارج فمه ، الشجرة تبدى استيائها بينما يربت الطائر بجناحيه عليها فى محاولة لتهدئتها .

.... بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة

على فرع مرتفع أعلى الشجرة المغروسة على مجارى المياه يقف . أتم بناء عشه . تزاوج بمن أحب . ها هى تحتضن البيض ، يفرد جناحيه . يعبر النهر إلى حقل القمح . يحمل بعض حباته . يضعها فى فم محبوبته . تبتسم له ، يرفرف بجناحيه كثيراً . يدور محلقاً فى الهواء . عند رؤيته صديقته سمكة النهر . تقفز فى الماء مبتهجة. ترد له تحيته .

القارب يشق صفحة النهر ، يلقى الصياد شباكه .

من مكمنه أعلى الشجرة يراه . يطير . يرفرف بشدة . يحاول أن يلفت انتباهها . تعلقت بتلك الخيوط اللعينة . تنظر إليه حزينه ، يعود يقف أسفل الشجرة حيث تمتد إليه يد الطفل العابث تقتلع عنقه دونما شفقة . يلقى به ضاحكاً ، يعود إلى لعبه . غير مبال بما حدث .

يتناول الصياد طعامه أسفل الشجرة بعد أن أزاح بقدمه جسد الطائر وعنقه إلى النهر ، يغسل يديه بالماء . يعود إلى قاربه . لم يستمع إلى أصوات المياه الغاضبة .

يعود الطفل منهكاً يلقى بجسده المتعب فى أحضان أمه الدافئة ، تحمله تصب المـاء على جسده المتسخ ، أصوات الطائر الذبيح تتحشرج أسفل قدميه .

الصياد يبيع أسماكه . الطفل ينام . الأم تعد الطعام لزوجها .

المحبوبة تنتظر عودة الغائب . الأمواج تتلاطم لكن لا أحد يجيب عليها . ويهدئ من ثورتها .

سمو

كانت تستحم فى مياه جارية ، نزل من السماء كى يجمع دموع البشر فى زق سماوى ، تقدم كبخور مشتهى للجالس على العرش .

رآها . توقف . نظر إليها . راعه حسن تكوينها الحسى . شرد فكره لحيظة ، انسكبت خلالها الدموع من زقها . سقطت بمياه النهر . تحول إلى دم .

ارتعبت . خرجت مسرعة لتستر جسدها الملوث بالدماء بأوراق شجر جمعتها على عجل ، وهى تتلفت حولها .

ابتسم ، وانطلق يبحث عن دموع أخرى يملأ بها زقه .

(٢)

جلس سعيد يشرح فى ثقة للسيدة الجالسة أمامه ، والتى تصدق كل ما يقوله لها عن مزارع زهوره المنتشرة فى أرجاء الوادى . كيف يجمع تلك الزهور بنفسه ويعصرها يدوياً ويضعها على شاش طبى . يصفيها . يخزنها فى أوانى فخارية . يضعها فى باطن الأرض على

عمق سبعة أمتار لمدة سنتين ، لذلك هى غالية الثمن يعطيها زجاجة العطر بعد أن يلفها فى كثير من القطن . يأمر سعيد الجمّال - القابع أمام الرصيف المقابل له - بأن يصحب السيدة فى جولة حول الهرم . يغمز له بعينه . قد أخذت الثمن .

صوت من السماء . « احضر لى روح سعيد . ستجده فى منطقة الهرم » .

صوت سعيد يرتفع بالغناء أمام الجمل . تطرب له السيدة التى تلبس « شورت » وتضع على عينيها نظارة شمسية . تلتقط بكاميرتها الصغيرة عشرات الصور . يتحشرج صوته . يسقط جسده على الرمال . الجمل لم يتوقف . لم يلتفت إليه .

ندت عن السيدة شهقة عالية ، بينما الجمل يواصل سيره .

لحيظات قليلة مضت ، استيقظ سعيد الجمال بعدها وهو يقول « لست أنا » . فى ذات اللحظة سقطت زجاجة العطر من الآخر . هشم بجسده واجهة محله الزجاجية . صراخ زوجته يملأ المكان .

يقترب سعيد الجمال من رجل .. يقول له :

« جرب أن تقود جملاً عربياً حول الهرم . لن تنسى متعته ما حييت » .

اقتناص

جلست على الحشائش ، طفلها بين فخذيها .. ظهرها إلى ظهر سيدة أخرى . تتناول من كيس موضوع أمامها حبات من الفاكهة . السيدة الجالسة بجوارى على المقعد الرخامى . عمرها حفر على وجهها دوائر متداخلة ، داعبت طفلها .

- يجب أن تسدد النقود على نهاية هذا الأسبوع .

قدمت إثبات ملكية المنزل إليه .. عشرات الإمضاءات على أوراق مختلفة .

- سد ثقب يدك . القرش الأبيض .

- الشوارع تغلق نوافذها فى وجهى ، ألجأ إلى الميدان الفسيح .

- يجب أن تحضر ضامناً لك غير تلك الأوراق ، أجلس أمامه أوقع دون أن أقرأ .. يقول متضرراً « الموضوع كده فى غاية السوء » .

التكشيره تعلو وجهه . يمتعض . يتركنى جالساً إلى المكتب أنظر إلى الساعة التى ملت منى .

- أرسل الأوراق غداً مع زوجتك . سأطلع عليها . قد أضمنك .

أعيد ترتيب الأوراق النقدية لدفعها عبر الميدان الفسيح كى تعود لى أوراقى . تحمل السيدة طفلها .. تقترب منى .. تهمس فى أذنى .. هل لديك مكان قريب .. زوجى سيعود فى العاشرة .

تداخلات

فى الباص تمتد يده خلسة إلى قعر الظلمة .. تنظر إليه فى دهشة .. تذوب الكلمات داخلها .

- ما رأيك فى الارتفاع الجنونى للأسعار ؟

وجهه متجهم يبدى الجدية . يتحدث عن مشاكل الإسكان . أخطار الأوبئة ، الأمراض التى لا نجد لها علاجاً . التى على حد قوله « نتيجة تمرد وعصيان » تترك الباص قبل محطتها .. تلملم ما بقى منها . تسير بخطوات متثاقلة .

وجه مبتسم يلقى بأخر النكات « سوف يفوز الفريق بالدورى قد يأخذ الكأس أيضا » .

وجه متجهم .. مبتسم .. يبدى .. يتحدث .. يهرج .. يصمت .

تبتعد .. تقترب .. تلتصق .. تصيح .. تصمت فى قهر .. تصمت فى لذة .

فى عجالة يقول للسائق : محطتى هنا . تنظر إليه بانكسار كى لا ينزل .

- هل هى محطتك . ؟

بعد تحرك الباص .. يعض شفته السفلى فى قسوة ، تخبره بسفر زوجها منذ ثلاث سنوات كى يؤمن مستقبل أولاده .

- أعمل فى رعاية أسر المسجونين ..

أحاول المساعدة .

تقترب منه - بينما الباص يواصل سيره .

رائحة

تلك الموسيقى تفرز رائحة استنشقها فيرتخي جسدي الثائر . أطفئ النور فيفرز جسدي رائحته الخاصة بينما الموسيقى تتراخي وتلقي بجسدها المنهك إلى جواري وتنام . رائحة أعلمها جيداً من أطراف أصابعي وهي تبحث عن المجهول ، من حدة بصري الفجائية وهي تلتهم جسد امرأة عارية نائمه داخل أروقة ذاتي .

رائحة الزهور لا تستثيرني بقدر رائحة ما تحت أبطيها ومراعي العشب الدافئة .

رائحة تبحث عني بقدر فراري منها ، رائحة ذكرياتي المحترقة . دخانها المنبعث يسد الطريق أمامي ، فأحفر نفقاً لأحلامي متخذاً طريقاً خفياً تحت الجلد ، أبغي الهروب بحياتي التي قامرت بها كثيراً فخسرتها أربعين مرة وربحتها مرة واحدة .

انتشيت بفرح لا يوصف ، ألقي بظلاله على روائحي المختلفة فلم تظهر حتى لذاتي المرتدية لباس العرس البهي . تظل الرائحة مستترة بدمائي مهما أحاول تغييرها أو سفكها على أسفلت الطريق للعابرين .

يؤكد بعضهم لبعض هويتى من الرائحة التى تغشى أنوفهم وتتسلل داخل أبدانهم وتسكن دماءهم . يلعنوننى بعدها إلى أبد الآبدين بينما أظل سائراً منتشياً برائحتى ولعناتهم تلتصق بحذائى الذى يثقل على فألقيه بعيداً وأسير حافياً حتى من ذاتى التى تنتحى ركنا قصياً وتنظر لى فى شفقةٍ ورثاء .

امرأة من رمال

تتسرب إليها النجوم لتلمس جسدها الغض . تدق بيديها على الصخر يتفجر منها النور . تاج من الحيتان يحيط برأسها .

تسيح الظلمة من شعرها ، فيمتلئ الليل سواداً . الخضرة على قمم الجبال . تنبت من عينيها .

امرأة بعرض الأرض نائمة على الرمال . تقترب السماء منها رويداً رويداً ، فتحبل بالأمواج ، يتدفق البحر من فمها . من وجنتيها تشرق الشمس . تخفى القمر بين خصلات شعرها .

امرأة تمنيتها كثيراً ، عندما تأتى إلى منزلى يوقظنى الطوفان . تنبت صفحات كتبى أزهاراً . تنطلق أسراب العصافير بسقف غرفتى .

عندما ألامس نهديها ينبع منهما النهر . يفيض الوجود حياة . امرأة أحببتها . امرأة من رمال .

هل تأتى إلىّ ؟

مخاض

تتمخض الساعة عن سنوات مطحونة بهاون الذاكرة ، صورتها الممزقة من مدرجات الجامعة ، مقاعد القطار ، أرصفة المحطات حوارى قريتنا ، شرفة منزلها تتقارب .

تلدها الصدفة لى على ناصية مقهى سافوى . الكتب تتساقط من يدى . الأفكار تتبعثر من رأسى تعرقل المارة .

أنظر إليها من خلف ذاكرتى . سيمفونية هى . وتتعلق يدى بالـ (دو) كى أجوب طرقاتها ، تختفى ملامح اللحظة . الأرصفة . الشوارع . القطارات .

يد صغيرة تتعلق بيدها ، يد حقيقية تصفع صدغ أحلامى الأيمن فأدير لها الآخر .

يد لا تمت لى بصلة ، فقط كونها منها .

أتتكون منها فقط ؟

أعبر أزقة نفسى إليها . تغوص قدمى بدمائى المسفوحة على طرقات إحساسى . أطرق باب ذاتى . لا أجدنى .

هى أمامى تشترى الحلوى له ، المرارة تقطر من حلقى ، صوتى يخرج صامتا ، يلقى لها بمشاعرى ، تلقى النقود للبائع ، تحمله على صدرها ، تعبر نهر الطريق لتلحق بقطارها . أسند ظهر ذكرياتى بيدى ، يتركنى قلبى ، يجرى خلفها . يتناثر أسفل السيارات المسرعة تلتفت . تردد : « لماذا يتركون هذا الشارع دون نظافة ؟ » .

كلاكيت ثانى مرة

دقات أجراس . الشموع تضاء . الثياب البيضاء تعلن سرها . أخوها يبتسم ، يصافح المدعوين . الفخر يملؤها ، ستتحول إلى سيدة مجتمع كما كانت تحلم . تركب بجواره السيارة . الابتسامة تملأ وجهه . الفلاشات تبرق من حولها. أخيراً تركزت الكاميرا عليها ، عليها فقط .

أصبحت المحور الذى يدور حوله الجميع يصافحونه ، يتمنون له حياة سعيدة . من عائلة عريقة هو ، جذوره راسخة ، فرعة فى السماء ، يعدل من رابطة عنقه يبتسم لها فى ودٍّ ظاهر . أجمل فتاة هى ، قلبها ذهب خالص ، عيناها مرمريتان . الجميع ينظرون لها ويهنئونه . أجمل الزغاريد تنطلق . أجمل العبارات تقال . سنوات قليلة ويزهر فى جانب المنزل وردة تتلعثم حين تنطق الكلمات . فتملأ البيت ضحكاً وضجيجاً . السجادة التى تئن من سقوطها . الفوضى المحببة التى تصنعها الطائرات التى تقذفها أسفل الكراسى مصنوعة من المراجع العلمية . عندما طرق الطبيب منزلهم فى صحبة خالها لم تفهم سر تجهم الجميع .

لم تفهم نظرات الطبيب وهو يرفعها إلى أعلى ويشير بيديه نحو أبيها ، التليفزيون الذى اختفى خلف قطعة قماش بيضاء ، السواد يزحف فى أرجاء الصالة على صوت النحيب .

- ستذهب معى ، تلعب مع أولادى ، الجو غير ملائم لها . أيام طويلة قضتها بين بيت أبيها وخالها فرحة بتنقلها معه ، بالحلوى الكثيرة التى يشتريها لها ، بأولاد خالها ولعبهم ، بالاهتمام الذى تشعر به منهم .

- متى يحضر أبى ؟ أود أن احضنه أعبث بشاربه ونظارته ، أقبله ، لماذا تأخر ؟

- هذا الفستان لا يلائمك ، الناس ستضعك مضغة فى أفواههم .

- أخيراً قد فزت بعمارة وبعض الأموال ، أما البنت فلن تؤثر على فى شئ ، عقل أمها فى جيبى وقلبها أسفل وسادتى .

- سيعود أبوك سيعود لا تقلقى يا ابنتى ..

- سبعة أشهر قد مرت ، من حقى أن أعيش حياتى ، لسنا فى الهند كى أدفن إلى جواره .

- باب القاعة مفتوح ، التاج لا يعلو رأسها ، الأجراس لم تدق بعد ، من هذا ياخالى الجالس بجوارها ؟ لماذا يبتسم كثيراً ؟

أخذها في حضنى ، أربت على كتفها وأخفى دموعي أقول لها لن أتركك ، ستعيشين معنا ، زوجتى قد تصبح لك أما وأنا قد أكون لك أبا . تترامى إلى أذنى عبارات التهنئة الساخرة ، الاستغراب ، فاشدد يدى على قبضتها وأمضى بها عندها تدق الأجراس .

انتظـــار

تنتظر الذى لا يجىء ...

وتودع الذى لا يذهب ،

فما بالك وكرسى مقهى سافوى قد التصق بك .

عيناك مثبتتان على الجدار الأصفر لمحطة القطار . السور الحديدى يفصلك على المبنى . رحلت منذ عدة أعوام وأنت لم تبرح قط مقعدك .

تغير لون شعرك إلى حد المشيب ، واشترى المقهى من لا يحسنون عمل القهوة ، وأنت كعهدك باق . الانتظار تركك ، ذهب ليشاغل أناس آخرين .

العربات تمرق أمامك والقطار لم يَحِدْ عن مساره .

جدران منزلك تبحث عنك ، أولادك يصرخون طلباً لرجوعك .

زوجتك مازالت تنتظرك بفستان زفافها الأبيض . سنوات قد مرت

وأنت لم تنضه عن جسدها الغض . متشبث بقطارك ومقهاك وكرسك ، والتى رحلت لم تعد تتذكر حتى اسمك ، صورتك ألقت بها على رصيف القطار قبيل سفرها .

قهوتك قد فسدت من طول بقائها . يدك لم تمتد أبداً إلى الفنجان ، فلماذا تصر على طلب القهوة فى كل صباح ؟ !

القطار حاد عن مساره بعد أن يئس منك ، أولادك يطلبون عودتك ، زوجتك تنتظر ، وتصرخ فى صبى كى لا يعد لك القهوة الساخنة . تبتسم ، تنتظر تصرخ ، تبرد لكن يدك لم تمتد أبداً كى تتذوق قهوتك الباردة .

شفاه لاتعرف النوم

ارتكزت بمرفقيها على السرير ، بعينين غائرتين ، بالكاد ترى بهما الأشياء من حولها أشباح .

بصوت خفيض تسأله : هل يوجد أحد غيرك .. ؟

منذ سنوات جلست بجانبه فى ملابس بيضاء ، طرحتها خلفها يمسك بأطرافها اثنتى عشر فتاة جميعهن بالملابس البيضاء .

حبات من الماس كبيرة الحجم تظهر بوضوح بارزة من عقدها البلاتينى الملتف حول عنقها المشرئب لأعلى ، وهى تنظر للجميع فى زهو وسرور . تتقدم متأبطة ذراعه على نغمات موسيقية تتغير على وقع تحركات وسكنات جسديهما .

تراقصه ، بعدها يبدأ الجميع الرقص . يفتتح البوفيه الضخم الذى تتوسطه « تورتة » تحمل اسميهما . يدها فوق يده ، يقتطعان جزء يسير منها ، يتركان بقبة أدوارها السبع للمدعوين .

تتمايل الراقصة أمامه وهى تهمس فى أذنه : عروستك زى القمر . يضع بين نهديها عدة ورقات نقدية ويبتسم لها . تمر أيام عسلهما الأول سريعة ، بينما تتلاحق أيام عسلهما الثانى موزعة ما بين عملهما وتلك الخصوصية التى قالت له عنها لا أشعر أن أحداً على وجه الأرض يتمتع بلحيظات حياته كما نتمتع نحن . يحتضنها ، يهمس فى أذنها ستظل حياتنا عسلاً صافياً .

تنمو بطنها تدريجيا بطفل يصير محور اهتمامهما المشترك . بعد ولادته تتفرغ لرعايته ، وهى تعد زوجها بأن كأس عسلة لن ينقص وإن صار لها عشرة أطفال .

لاحظ شحوب زوجته ونومها غير المنتظم . تطمئنه دائما « شوية ارهاق » . مع الوقت يزداد قلقه ، بعد إجراء فحوص وتحاليل يتأكد له تغلغل المرض اللعين فى عظامها . لا أمل هنا أو فى الخارج . كلمات تفوه بها الطبيب وهو يربت على كتفه .

يدعوه إلى الصبر والايمان ، أشهر مرت وزوجته لم تغادر مستشفاها .

يتبدل على جسدها علاج إشعاعى ، آخر كيمائى . زوجها يقضى طيلة الليل بجوارها ، يتسمع أنفاسها ، زفراتها ، تنهداتها اليائسة . جسد زوجته يذوى ، قلبه يذوب مع آهاتها غير المكتملة من شدة الألم .

- لا يوجد أحد غيرى . قالها وهو جالس بجوارها يربت على كتفها . احتضنى . قالتها والدموع تنهمر من عينيها . منذ زمن لم تفعل . يداه التفت حول جسدها الهش ، أطبقت بشفتيها على شفتيه ،

لم يشعر كم من الوقت قد مضى ، وضع رأسها على الوسادة ، وجهها اختفى خلف الملاءة ، أغلق الباب خلفه ، شفتاها مازالتا نائمتين بين شفتيه ، لم يحاول بعد ذلك إيقاظها أبداً .

أبانا الذى ...... وأنا

لا أجهل قدرك يا باعث الحياة لي ، بحارك عميقة ، الماء لم يتعد قدمي بعد ، أهوال كثيرة لحقت بى ، عظامك خيمة ، درع تذود عنى السهام النارية ، صوتك يرن فى أذنى .

(هم يحبونك)

بعد موتك ، آثار لحمى فى أسنانهم ، لسانهم حطم عظامى ، دموعى شقت نفقا يصل ما بين غرفتى ومقبرتك ، جدرانه ، سقفه ، مصنوعة من تأوهاتى .

يأتينى ليلا ، يجلس معى ، أضع رأسى على صدره ، يهمس فى أذنى بحلول لمشاكلى ، ينصحنى بالابتعاد عنهم والانتقال إلى أطراف القرية ، حيث تنظر عين إلى الوادى ، الأخرى إلى الجبل بهدوئه وروعته .

يجلس معى بجوار الصفصافة العتيقة ، نضع الخبز على جمر النار ، ثم قليلاً من الزبد عليه ، ليصبح الطعم رائعاً .

الماء يغلى بذرات الشاى مختلطاً بصوتك الجهورى .

[ضع قليلاً من السكر] .

[الأرض بز حلابة راعيها تراعيك] .

استيقظ على صوت زوجتى . يجب دفع مصروفات المدرسة اليوم .
أبحث فى جيوبى لا أجد سوى صورة أبى يبتسم .

لحم الجميلة

حين تقف على ظهر الجميلة ، اخلع حذاءك ، رسِّخ قدميك ، بارز خصمك ، لا تلق له بالا وهو يرسم خرائط عليها ، فلن تتغير حدوداً قد تسلمتها ، موتها بيدك أنت ، حياتها مستمدة من وجودك ، لا يملك من أمرها شيئا ، أصابعه وأن طال المدى لن تترك على جسدها أثراً ، فجسد الجميلة مرسوم ببصمتك .

حذار أن يتساقط دمعك على جسدها ، دمعك قادر على حرقها ، أصمت طالما أنت فى زمن المتاجره . إن اقتطع من لحمها لا تبتئس ، من ثدييها يخرج لك أجيال متتالية ،

ويعود لحم الجميلة إلى موضعه .

أيـــام ..

بيـاضهـا تحول إلى اصـفرار . بصـمة اصبعه بـجوار الأشـخاص . الحـواف مـتـآكلة بفـعل الزمن . بيـد مـرتعـشـة يقـرب الصـورة إلى نظره الكليل بالكاد يتعـرف إلى نفسـه ، ترجـع الذاكـرة بـه عـشـرات السنين إلى الوراء .

اليـوم يوم التـخـرج ، يقف بشقة واعـتزاز ممسكاً بيـديه أطراف روبه الأسود مـبـتـسـماً ، يلبس بدلة جديـدة لأول مرة ، هى تقف أمـامـه ، إنهـا حبه الوحيد ، سيـحـاول عبـور الحـاجز بينهـمـا ، أربع سنوات يحبـهـا فى صمت قد اكتسب اليوم ميزة جديد ، بشهادته العلمية ، ينظر إلى شعرها ، ثوبهـا الأزرق ، سيـصـارحهـا اليوم بحبه ، ينتظر بجوار باب سيـارتهـا ، فى الأوتوبيس المزدحم يعاهد نفسه على محادثتها غدا فى منزلها .

تمر الأيام ، يزداد إصراراً ، تمر السنين ، يزداد إحجاماً .

أصبحت جدة وهو لم يتزوج بعد !!!

نغمات

خيط ما بين شيش نافذتك المكسور وباب شقتك ، معلقة عليه الحياة ، قابضة بأطراف أصابعها على الموت . فى كل مرة تخرج من منزلك يتأرجح الخيط ، تصدر عنه نغمات أنت تعرفها جيداً .

ذات ليلة عندما احتضنتْ فتاتك بمدخل شقتك ، شهقت لسماعها النغمات ، نظرات الاستنكار بعينيها ، قلت لها : «أنه مواء قط عجوز» نظرت إليك طويلا ولم تكذبك .

أقاربك يحتلون الشقة ، أحدهم يبيع كتبك الثمينة إلى بائع الروبابيكيا ، الآخر يعبث بنظارتك، الثالث يلبس «بيچامتك» المفضلة ، نعشك لم يغادر بعد باب شقتك ، حيث يتقدمه قسيس كثيراً ما ألح عليك كى تدلى باعترافك فرفضت ، المجمرة بيده ، البخور يتصاعد إلى السماء فتاتك تقف قبالتك تبصق على الأرض متذكرة وعدك لها بالزواج ، حملة نعشك من ثقلك يتذمرون ، بينما يسحق أقاربك بأحذيتهم البالية بقايا شمسك المنطفئة فى صالة شقتك ، يصرخ القسيس طالباً لك الرحمة التى لم تطلبها أبداً ، الأرض تطبق فاها عليك .

القسيس يأخذ أجرته ، يلعنك أقاربك ، تمضى فتاتك بمفردها ، الطريق يلتف حولها ، النغمات تملأ أذنيها ، يرددها كون ، تشتعل شمس ، ينطفئ قمر ، يتلاشى الطريق أسفل قدميها .

طيب ... كثير الثمن

كـان من المفـروض أن أولد فى مكان له وقع تاريخى مميـز بدوره الإيجابى لخدمة البشرية ، كى يرتبط اسمى باسم ذلك المكان فيضيف لى وقعاً رناناً وأضيف له تلك الأعمال المجيدة التى سأقوم بها .

لم يتعد عمرى العاشرة حين اتجهت من الصعيد إلى القاهرة عبر بـوابة حلوان ، عند وصولى إلى منطقـة المعـادى تلفت كثيـراً كى أرى أبطال ألغازى الخمسة وكلبهم زنجر لأهدى إليهم بعض نصائحى الثمينة .

لكن فى تلك السنة بفضل خطتى العبقرية عبر الجيش المصرى قناة السويس .. زرع هناك على الضفة الشرقية العلم المصرى حيث تخاطفته رياح سيناء وبواسطتها طرح أعلاماً مصرية كثيرة حتى حدود طابا مما مكن المصريين من استرداد سيناء كاملة (اللى تجيبه الريح يستغرق عادة عدة سنوات) .

وكما طرح رمل سيناء العلم المصرى ، طرحت تربة الوادى من جنوب النوبة وحتى شمال الإسكندرية أشجاراً غير صالحة للاستهلاك الآدمى ، أنتج بعضها ثماراً لاذعة ، تذوقها الآلاف ، أنبتت على أعناق الرجال سلاسل من ذهب ، ورسمت على أجساد النساء خرائط للشهوة .

جعلنى ذلك أبادر بحشو بندقيتى بعشرة صقور لإنقاذ يمامة بيضاء حطت أمام ناظرى ، التف حولها عدد لا بأس به من غربان الشوم .

أطلقت صقورى العشرة ، فحط أحدهم على جسد يمامتى بأظافره القاتلة بينما الباقى تأفف ورفض صيد الغربان لكنه نجح فى إفزاعها وطيرانها بعيداً ، تمزق جسد يمامتى إرباً وتفرق بين أنياب صقورى العشرة .

حطمت بندقيتى واتجهت إلى القلم أخط به بعض همومى ، أخرجها من داخلى كى أراها تتجسد أمامى أحلاماً وكوابيس .

تلذذت بالقلم وعشقته ، نجحت فى جعله عصا توازنى ، كى لا أسقط وأنا أسير على حبل مشدود من ساعة ميلادى وحتى يشاء الله الذى لم يقبل وجود شبكة تحمى الذين يسقطون على اسفلت الحياة الخشن .

لم أولد فى مكان عظيم ولم أضف شيئاً جليلاً كى يحفر اسمى فى مكان بارز على لوحة الحياة لكن وبعد جهد طويل نجحت فى نهاية مطافى أن أدفن بملابس بيضاء ورأسى ناحية المشرق كما نجح الصبار فى امتصاص عصائرى المختلفة كى يظلل على بقاياى .

سؤال فى الوقت الضائع

كانت الأضواء صامتة ، صوت الموسيقى يخرج مضيئاً ، الطيور تحلق فى الأجواء العالية ، لم يظهر فى خلفية الصورة سوى نعيق البوم ، فحيح الأفاعى ، وقمم الجبال العالية التى يغطيها الثلج الساخن جداً ، الذى لا تستطيع أن تطأه بقدمك الحافية فى محاولة لصياغة معنى جديداً للذات المقلوبة ، الذات التائهة ، الأخرى المنقسمة على ذات ذاتها .

قليل من الرمل فى نصف كوب ماء قبل الأكل لمدة تربو على عمرك المفترض كى تصل إلى عورة الحقيقة ، هكذا نصحك طبيبك المعالج الذى أخذ ثلاثة أرباع أيامك ثمناً لهذا الدواء السرى جداً المسئول عن إطالة عمر الفلاسفة .

ليتك لا تعود تنظر فى الكاميرا مرة أخرى وتحاول أن تصحح كادر الصورة .

منذ أن تخرجت من الجامعة وحتى أصبح رأس ابنك مقارب لكتفك وأنت واقف ، كل هذا الوقت قضيته خلف تلك العدسة دون جدوى .

زوجتك أغلقت فى وجهك باب شقتك كى تستمتع بأحضان عشيقها الذى استطاعت تهريبه دون جمارك من الخارج داخل كعب حذائها الأبيض ، أتذكر ؟

لقد وقفت معها فى شارع الشانزلزيه وأقنعتها بشراء ذلك الحذاء .

لماذا تصر أن تتوسط الصورة الجدار المواجه لباب غرفة نومك ؟ تستطيع أن تعلقها من أحد أركانها الأربع ولن تختلف الرؤية .

لا تسأل كيف تحرك إصبع قدمك داخل تجويف رأسك وأنت تقود سيارتك دون أن تصطدم بشئ ؟.

أتعرف قيافا . وعن أى شئ تنبأ ؟.

(واحد يموت عن الشعب ، أليس ذلك خير لنا)

صاح الجميع أصلبه أصلبه ، لك القوة والمجد ولك أيضا ما تفرزه صدورنا وما يخرج من بين أيدينا وشفاهنا ، لكن لم تخرج سوى كلمات متقاطعة غير مكتملة الحروف :

(فرصة لشغل وقت فراغك)

لماذا مزجت سواد الليل بزرقة عينيها ؟ . هل يكفى غرورك أن ترتدى لك القميص الأحمر ، تفترش سريرها حيث تقطن بالدور العاشر بينما أنت تثرثر على مقهى مواجه لباب بيتها . كيف تخترق نظراتك كل هذه الأحجار لتصل إلى نهديها ؟

لماذا تخفى يدك أسفل الطاولة وتصر أن تلعب الدومينو بيد واحدة ؟

هل بعدها تستطيع أن تترك بقشيشا كافياً وتدفع خسارتك المعهودة ككل يوم ؟.

شاهد مقبرة أبيك لن يغفر لك وأنت تأخذ النقود وتضعها داخل جيب سترتك ، توقع على عقد بيعها لأجنبى ، لحظتها قام أبوك ، تركها لكم خراباً ، ذهب لينام مع صديق طفولته فى مقبرة أخرى .

أرجو ألا تحاول إزعاجه ثانية ، لقد قدم لك كل ما يملك .

اتركه ريثما يلتقط أنفاسه ويألف الجدران الجديدة المحيطة بعظامه .

بعد إجراء جراحة ناجحة استطعت أن تنظر بعينيك ما يدور داخل رأسك لكنك فقدت رؤية كل ما حولك .

إذن لماذا تصر أن تتوسط الصورة الجدار المواجه لباب غرفة نومك وأنت لن تراها ثانية ؟

لماذا ؟

الأحلام أيضا تموت

وأنا فى القطار المليء بالبشر والحقائب والباعة ، أغض بصرى عنها ، جالسة بجوارى ، هى سويعات قليلة نقضيها معاً . جسدها يشف عنها ، تتلألأ الروح داخلها . عندما رقّت ابتسامة على شفتيها تنهد القطار ، زاد من سرعته ، الباعة يعطون بضائعهم مجاناً ، القمح ينمو سريعاً . يحط اليمام على أكف الناس فى طمأنينة ، يلتقط حبات القمح المنتشرة على رفوف القطار .

قلبى يتجول داخل حديقة مليئة بالزهور ، يغسل ذاته من أدناس العالم فى مياه جارية . يعزف على بيانو استعارة من دار الأوبرا أحلى الكونشرتات . التصفيق حاد من أرجاء العالم ، يدق دقات تعبّر عن سعادته .

أمامى جلس بنظارته السميكة ، ابتسامته الوادعة ، يحمل مراجعه العلمية .

استأذنت منه كى يحجز المقعد الوردى لى ، تمشيت على سطح القطار ، المدائن تهتف لى ، القطار لى وحدى ، أثر قدمى على سطحه واضحة ، أقفز أمام قاطرته أخشى عليها من التفتت . أستلقى على ظهرى لكى ينجو هو ، أرقب عرباته من مكمنى وهى تعدو فوقى . تمسك يداى بمؤخرته ، فى طريق عودتى تترامى أمامى .

- ما اسم هذه العضلة ؟

أخرج من حقيبتى بعض المشروبات التى أحضرها زوج أختى من الخارج وادّعى سرقة باقى الهدايا . أقدم منها لصديقى ولها ، تقبل فى صعوبة بالغة ، ألامس يدها فتطبع بصماتها على أصابعى .

شكرتنى ، اهتزت أوتار قلبى ، ارتجت أساسات العالم .

- لا أنظر أنا ياسيدى إلى الفتيات .

الصفر المكعب صار بحوزتى .

- هل انتهيت من امتحانات نصف العام ؟

عيناها والزرقة الشديدة ، تحررت من ملابسى إلا ما يستر عورتى ، سبحت بعينيها ، حذرتنى من الغرق ، فلم أهتم .

صديقى يحمل مراجعه العلمية وملابسى ، يبتسم فى هدوء يقول لا تدفع عشرة قروش إضافية لبائع الكشرى كى يعاملك معاملة خاصة .

السباحة لذيدة ، الماء دافئ ، شمسها لا تنطفئ ، هى غير محرقة لكنها مضيئة .

– لم يتبق سوى امتحان « الفارما » فقط .

تأمرنى بالعودة فأرضخ . كنت أود التسلل عبر العصب البصرى ، أود أن أرانى جالساً داخلها .

أبى يقابل والدها ، ببرود يقول له : (ده شغل مراهقة ، كيف يرتبط وهو لم يتعد العشرين ؟) أيضا سترتبط هى بابن خالها .

أقص على صديقى قصتنا ، أخرجها من داخلى وأضعها أمامه .

– لماذا تخبرنى بكل مشاعرك ؟

– لأنك صديقى الأوحد ، أعرى جذورها علها تموت .

أحضر زفافها ! ألم أذرف الدموع ؟

أسهر معه فى عيادته ، أشكو له من ارتفاع الضغط ، السكر .

يذكّرنى بأنه جراح ، أسأله : (هل ارتفاع ضغط الدم يمنع البكاء ؟) .

ينقل نشاطه إلى إحدى القرى ، العائد المادى لم يعد يشغله ، يخفف آلام الفقراء ، يدعونى كى أعمل معه .

يقسم سريرى علىّ بأغلظ الأيمان ألا أقربه ، ألتجأ إلى المكتب الذى يقبلنى على مضض .

أضع رأسى عليه ، أستيقظ على صوت بائع الجرائد ، أفتح النافذة فيلقى لى بالأهرام .

أقلبّ صفحاته متثاقلاً ، فى حفل عائلى بهيج جمع شمل الأسرتين . صورتها تبدو مبتسمة ، على صفحة أخرى صورة صديقى أسفلها .

(مصرع طبيب شاب فى ظروف غامضة)

ألقى بالجريدة ، القطار يحيد عن مساره ، يسعى فى الصحراء ، لم أتوقف لألتقط أنفاسى ، نقرت لى فى بطن الجبل كهفاً .

استقر بى المقام ، أهدانى الجبل صمته ورسوخه ، أهديته توهجى واشتعالى .

تحرر من قيوده ، انطلق يبحث عنى فى ظل الوديان وأنا بداخله ساكن .

كى تكتمل الصورة

فى اليوم العاشر من الشهر الثانى من تولى «كلينتون » للعالم ، كنت أضع قطرات من عصير الليمون على طبق من الفول مضافاً إليه الزيت الحار وقليل من الملح فى مطعم التابعى الذى تقع خلفه مؤسسة الجمهورية إحدى الدعمات الثلاث التى تتبنى بوضوح وجهة نظر الحزب الحاكم . كادت أمى أن تصب الشاى الساخن أسفل شجرة الصفصاف فى حقل لا تتجاوز مساحته عدة أفدنة أخذها أبى من الإصلاح الزراعى منذ عدة سنوات . كان صوت المذياع يبشر العالم بنجاح جهود فتى الكاوبوى الأول فى إخراج الرهائن من إيران والتى بسببها طار الرئيس الأسبق .

فى جريدة الأهرام وعلى صفحتها الأولى خبر يؤكد قيام الرئيس المصرى بضرب عناصر الفتنة الطائفية من الجذور . كُنتاكنتى يواصل محاولاته فى الهروب ، أراه على شاشة تلفاز المقهى المجاور . أخى يحاول توليد البقرة الوحيدة التى نمتلكها كى أحصل من ثمن وليدها المقبل على قميص أبيض جديد .

أصرت الجامعة العربية على تجميد عضويتنا بينما فتياتنا فى الشارع المسمى باسمها يقمن بجهود خارقة لتوطيد العلاقات وفتح منابع جديدة للحوار الذى انقطع بزيارة رئيسنا للقدس . تم اغتيال بيريز . قرر أبى بعد تفكير عميق شرب الشاى بارداً بينما كانت أمى تلح فى إعادة تسخينة أعلى (الراكية) وهو يرفض بشدة . نجح أخى فى إخراج قميصى الأبيض من بطن البقرة .

الرهائن عادوا للوطن . الجامعة العربية رغم العرق والتنهدات الكثيرة من فتياتنا ترفض عودتنا وتوافق فقط على استمرار « فتح » منابع جديدة للحوار . جرسون التابعى يصر على أخذ بقشيش يساوى نصف ثمن الطعام لحظتها فشلت فى اللحاق بالقطار فاضطررت إلى ركوب إحدى سيارات الأجرة .

وضع السيد الرئيس من أسماهم برؤوس الفتنة فى مكان آمن بعيداً عن مصادر الهواء « الملوث » والشمس « المحرقة » ، لكن شجرة الفتنة ترعرعت وألقت بظلالها الوارفة على جسد الوطن لحظة وصولى لمدخل قريتنا كانت العتبة « قزاز » مما جعلنى أبادر بخلع حذائى كى أجلس إلى جوار أمى التى غمرتنى بقبلاتها وهى تلتهم ساندوتشات التابعى الشهيرة ، أبى يعتب علىّ لعدم إحضار كيلو بلح عجوه من أجل أسنانه التى تبقى بعضها فى فمه على استحياء ، أخى يكوى القميص ، البقرة تصدر خواءها الرائق العذب فرحة بوليدها ، المذياع يبعثر أخباره على تراب منزلنا ، كُنتاكنتى يفشل فى الهرب ، أغلق باب منزلنا بحرص خشية ضياع وليد البقرة ، أفرد جسدى الخشبى على أرض رطبة وأنام كى أستقبل فى الغد - بشئ من التفاؤل - اليوم الحادى عشر من الشهر الثانى من ....

الفهرس

الصفحة

الساقى ٧

صورة ٨

نظرة ٩

صورة أخرى ١٠

الذاكرة الخرساء ١١

ثقب فى جدار النسيان ١٢

صوت السكون ١٣

وقع أقدام ١٤

صهيل الذاكرة ١٥

جبار ١٦

صحبة ١٧

لعبة ١٨

ذات ١٩

ذات وأخرى ٢١

يقظة نوم ٢٢

علاقة ٢٣

عبور ٢٥

رؤى جسد ٢٦

سفر ٢٧

رحلة ٢٨

دمعة ٣٠

الصفحة

تغـيـيـر ٣٢
النافــذة ٣٣
أنــثــى ٣٤
دهشــة ٣٥
بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة ٣٧
ســهــو ٣٩
اقــتناص ٤١
تداخــلات ٤٣
رائحــة ٤٥
إمـرأة من رمـال ٤٧
مــخــاض ٤٨
كـلاكـيت ثانى مـرة ٥٠
انــتــظــار ٥٢
شـفـاة لا تعـرف النوم ٥٤
أبـانا الـذى .. وأنـا ٥٧
لحم الجـمـيلة ٥٩
أيــام ٦٠
نغـمـات ٦١
طيب كـثيـر الثـمن ٦٣
سـؤال فى الوقت الضــائع ٦٥
الأحـلام أيضـا تموت ٦٨
كى تـكـتـمل الصـورة ٧٢

المؤلف

مدحت يوسف

- ولد فى سمالوط عام ١٩٦٣

- نشرت قصصه فى أخبار الأدب - أدب ونقد - إبداع - الشاهد - جريدة المساء - جريدة الأهرام المسائى - كتاب أدباء الأقاليم - مجلة القصة - مجلة الهلال - مجلة سطور .

- تحت الطبع :

« ستة أوجه للحزن » (رواية)

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطيه حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد

٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - أفراخ الحمام	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف

لجنة الكتاب الأول :

غير ملزمة بإعادة أصول الأعمال إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٤٠٨ / ١٩٩٨



تنشغل هذه القصص بكتابة هموم ذاتٍ تنقسم على نفسها، مما يؤدى بها إلى أن تتشظى فى شخصيات مختلفة ممثلة فى وجوه متعددة لذات واحدة هى ذات السارد. وما ضمير المتكلم الغالب على قصص المجموعة إلا تعبير وإظهار لتجليات هذه الذات وهمومها.

